

نظرة جديدة إلى جمال الدين الأفغانى

احمد عبد الرحيم مصطفى

عرض لكتابه :

— Nikki R. Keddie, Sayyid Jamal al - Din Al Afghani —
apolitical biography.

(University of California Press, 1972)

— Elie Kedourie, Afghani and Abduh - an essay on religious
unbelief and political activism in modern Islam (London. Frank
Cass, 1966)

من ملاحظ دراسات السير لدينا إفتقارها إلى النظرة النقدية وتميزها
بعدم الاتزان فى إصدار الأحكام . فهى تنصف بوجه عام بالعمومية
والعاطفية والاستغراق فى النظرة الواحدة التى تجعل كل شىء إما أبيض
أو أسود — ومن ثم المبالغة فى تقييم دور القادة والزعماء وإحاطتهم مع
الزمن بما يشبه القداسة التى يحاط بها أولياء الله الصالحون ؛ حيث تضعف
النظرة النقدية وتقوى الانجهاات التعبيرية وتبدو الحقائق أو التفسيرات
الجديدة خروجا على المسألوف . مرجع ذلك كله عدم انتشار المفاهيم
الاجتماعية فى تفسير التاريخ وتمركز الأحداث حول شخصيات بارزة —
على طريقة توماس كارليل — يفترض أنها هى المسئولة عن تحويل مجرى
التاريخ ، لا باعتبارها حصيلة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية
والسائدة فى عصر من العصور .

وجمال الدين المعروف بالأفغانى من الشخصيات البارزة التى حظيت —

ولاتزال تحظى - بالاهتمام والدراسة في الشرق والغرب : وذلك راجع إلى اقتران اسمه بمقاومة الاستعمار الغربي والحركة الدستورية واتجاه التجديد الإسلامى في عدة بلدان إسلامية . ورغم ذلك توجد في حياة الأفغانى جوانب كثيرة غير واضحة حتى الآن مرجعها غموض شخصيتها وتдресه بالأسلوب الشيعى القائم على التقية والذي يقتضى عدم الانصاح الصريح عن النوايا . وإذا كانت حياة الأفغانى قد كتبت بعدة لغات ، فإن الدراسات الخاصة به مما كتب قبل عام ١٩٦٢ م ، لا تعتبر كافية أو دقيقة تماماً . ذلك أن مؤرخ الأفغانى تواجهه صعوبتان - فن ناحية نجد أن معظم المادة المرتبطة بحياته مستقاة عن روايات صادرة عن الأفغانى وتلاميذه - وهو فيما يرويه يبالغ في تصوير أهميته بالنسبة إلى الدوائر الحاكمة في كثير من البلدان : فإينما حل تصوره هذه الروايات على أنه كان موضع ترحيب من الحكام الذين يقرّبونه إليهم ويعرضون عليه أرفع المناصب ، ثم ما يلبث أن يصطدم بهم ويتمرض للطرد سواء في الهند وأفغانستان أو في إيران ومصر وتركيا . وترتبط هذه الصعوبة بعدم توفر الوثائق المستقلة التى تفصل في حقيقة الأحداث ، فلما كان الأفغانى قد أمضى حياته في عدة بلدان وجب على مؤرخه أن يقوم بكثير من الرحلات وأن يلم بكثير من اللغات التى التى قد تساعده على التنقيب في دور وثائق عدة دول . وبالإضافة إلى ذلك تواجه مؤرخ الأفغانى روايات متناقضة يناسبه بعضها العداء في حين يتصدى بعضها الآخر للدفاع عنه ، ولا يتصف بالحياد إلا ألقاها - وكل ذلك مما يعقد مشاكل الحكم التاريخى عليه .

وقد ظهرت أخيراً سير الأفغانى لا تستند إلى رواياته هو ومريديه وحدها - فقد كتب عنه بالإنجليزية كل من نيازى بيركز^(١) وسلفيا

Niyazi Berkes, The development of secularism in (١)
Turkey. Montreal, 1964

حجيم^(١) وألبرت حرراني^(٢) وإلى كدوري^(٣) وألبرت قدسي زاده^(٤) وغيرهم . أما أكثر الدراسات شمولاً وواقعا فقد نشرتها هوما باكدامان باللغة الفرنسية في عام ١٩٦٩^(٥) ، وفيها أفادت من مصادر أخرى أهمها الأوراق التي تركها الأفغاني في طهران في عام ١٨٩١ م ، والتي نشر فهرست لها باللغة الفارسية بالإضافة إلى نص بعض الوثائق . وهناك ترجمة مفيدة للأفغاني يتضمنها كتاب نشر باللغة الفارسية في عام ١٩٦٠ م ، ويحتوي على مراسلات حكومية إيرانية تتعلق بالأفغاني مستقاة من أرشيفات الحكومة الإيرانية غير المطروقة بوجه عام . ورغم ذلك فتمة مصادر أخرى فارسية وتركية وعربية عن الأفغاني لم يفد منها الباحثون كثيراً ، وكذلك الحال بالنسبة إلى المصادر الوثائقية المصرية . وبالإضافة إلى ذلك فإن أوجه نشاط الأفغاني في كل من الهند واستنبول وروسيا القيصرية لا تزال غامضة .

وتراجم الأفغاني التي كتبت قبل عام ١٩٦٠ م ، تركز على مصدرين نذهب بروفيسور كدسي إلى أنهما مضللان أو متحيزان هما تاريخ حياة الأفغاني الذي نشره الشيخ محمد عبده في بيروت في أواسط الثمانينات من القرن الماضي حين جعله مقدمة لمقال « الرد على الدهريين » ، ومقال نشره جورجى زيدان عن الأفغاني في مجلة الهلال في عام ١٨٩٧ م ، بعد وفاة جمال الدين بقليل وذكر فيه أنه استقى معلوماته من محمد عبده وأديب

Sylvia Haim (ed.). Arab nationalism. Berkeley and Los Angeles, 1962. (١)

Albert Hourani, Arabic thought in the liberal age, 1778 — 1939. London. (٢)

(٣) أحد الكتابين اللذين نعرض لهما .

Albert A. Kudsi - Zadeh. The legacy of Sayyid Jamal al-Din al-Afghani in Egypt. Unpublished dissertation, Indiana University. Bloomington 1964. (٤)

Homa Pakdaman, D. Jamal — ed Din Assad Abadi dit Afghani, Paris, 1969. (٥)

اسحاق . ويصطنع محمد عبده في عرضه الدفاع عن الأفغانى ويدحض ما رواه بعض مربيه في مصر عن زندقته وعدم تمسكه بالدين معتمداً في ذلك على ما رواه الأفغانى عن نفسه شأنه في ذلك شأن جورجى زيدان . وعلى حين أن دراسة محمد عبده تقف عند عام ١٨٨٥ م نجد أن مصادر جورجى زيدان ضعيفة فيما يتعلق بالسنوات التالية لعام ١٨٨٥ م .

أما بروفيسور كدى مؤلفة الكتاب الاول الذى نعرض له فتشغل وظيفة أستاذ للتاريخ بجامعة كاليفورنيا (لوس إنجليس) . وقد كرست عدة سنوات لتتبع حياة الأفغانى وفكره رحلت خلالها إلى بعض البلدان التى عاش فيها حيث حصلت على مادة جديدة من دور وثائق لندن وباريس وطهران وغيرها . ثم قامت على دراسة هذه المادة دراسة نقدية بذلت فيها جهدا كبيرا ووقفت في جانب كبير منها في تمحيص كمية كبيرة من الأدلة المتضاربة الخاصة بتوقيت وظروف رحلات جمال الدين وعلاقاته الشخصية ودوافعه وأفكاره . كما يبرز تحليل المؤلفة كثيرا من التناقضات التى نلسمها في أفكار جمال الدين ويوضح أن الصورة التقليدية للأفغانى باعتباره نصيراً خالصاً لتعاليم الإصلاح الإسلامى مضللة إلى حد كبير . حقيقة أنه كان مفكراً حراً ظل يقدم رسالته بحيث تناسب مع مستمعيه على اختلاف مشاربهم واعتبر الدعوة الدينية أداة لأهداف سياسية ، إلا أن بروفيسور كدى تبرز أن تقدميته في المجال الدينى كانت تابعة لهدفه السياسى - ومن ذلك أن ارتباطه بحركة الجامعة الإسلامية لم يبدأ إلا في عام ١٨٨٣ م ، حين بدأ يتقرب من السلطان عبد الحميد وأنه أبدى استعداداه في مناسبات تالية للتخلى عنها حين رأى أنها تتعارض مع قضايا أخرى . بل أنها تبرز أن عدائه للإمبريالية البريطانية لم يمنعه من عرض خدماته على الحكومة البريطانية في أكثر من مناسبة وأنه أشاد بالاستعمار البريطانى في معرض حديثه عن الاستعمار الفرنسى .

وتعرض المؤلف في كتابها مادة جديدة تفصل بالتحليل النفسى لهذه الشخصية المضطربة . وهذا الكتاب في مجموعه لا يعتبر معاديا لجمال الدين ، بل يعطف عليه بعض العطف ويوفر تصويرا إيجابيا لحياته ونشاطه . ورغم اصطناع جمال الدين للغموض من باب (التقية) لدى الشعية ، ورغم ما تتضمنه أعماله من تناقضات فإن المؤلف لا تشك في اخلاصة وإيمانه بقضية الإنعاش الاجتماعى والسياسى فى البلدان الشرقية ، كما أنها تظهر نمو أثره فى التفكير القومى والاصلاحى إلى حد كبير منذ وفاته . فهى تصويره باعتباره شخصية لامعة ذات طاقات وطموحات لا تهدأ : فهو دائما يحطط ويصطدم ويهدد وينشر دعوته ويفخر بما أحرزه من نفوذ ، وإن يكن يشكو فى نفس الوقت مما لقيه من صدود من جانب أشخاص يتمتعون بمراكز كبيرة — كما كان يتمتع فى نفس الوقت بنفوذ كبير ناتج عن شخصيته القوية وذكاؤه وثغافته وتأثيره فى عدد كبير من المريدين والأتباع الذين ما لبث كثيرون منهم أن انفصوا من حوله .

وتستفيض المؤلف فى قضيتين رئيسيتين هما أصل جمال الدين وعدم تمسكه بالدين بالصورة المعروفة عنه . فالأفغانى وأشهر مريديه يذهبون إلى أنه ولد ونشأ فى أفغانستان وبالتالى فهو زعيم الأغلبية الإسلامية من أهل السنة - هذا على حين أن كثيراً من الإيرانيين قد ذهبوا فى حياة جمال الدين إلى أنه ولد ونشأ فى إيران على المذهب الشيعى . ولا يزال الخلاف حول هذه المسألة مستمراً حتى اليوم : فعلى حين أن العرب والأفغانيين يذهبون إلى كونه سنياً نجد أن الإيرانيين يبرزون مزيداً من الأدلة الجديدة على كونه إيرانياً شيعياً . وبعد أن تستعرض المؤلف وجهتى النظر هاتين تقطع بما لا يترك مجالاً للشك بأنه شيعى إيرانى حاول جاهداً أن يخفى هذه الحقيقة حتى تتأثر مكانته لدى الأغلبية السنية . وتربط المؤلف بين قضية أصل الأفغانى وبين قضية أخرى تفصل بما تذهب إليه من عدم حرصه على التمسك بأهذاب الدين فى تفاصيله ، مشيرة إلى ما صدر عنه فى حياته من أعمال وأقوال يشتم منها عدم

تمسكه بالدين إن لم يكن إلحاده ، وهى التهمة التى نفاها عنه مريدوه . وهى تستشهد على صحة رأيها بطرده من استنبول فى عام ١٨٧٠ م بقاء على طالب من شيخ الإسلام بعد أن ألقي خطبة رأى أنها تم عن الزندقة والالحاد .

وأما بروفيسور إالى كدورى أستاذ العلوم السياسية بكلية الاقتصاد بجامعة لندن ورئيس تحرير مجلة Middle eastern studies - فهو يركز فى عرضه لجمال الدين على الأمانة على زندقته ، مستشهدا على ذلك بالسمعة التى لاحقتها طيلة حياته بهذا العدد وبالعديد الكبير من الشهود الذين يعززون حكمه هذا . فثلا يذهب الكاتب عباس محمود العقاد إلى أن الأفغانى قد عرف (بالزندقة) فى أوساط المتدينين ويستشهد على ذلك بما رواه عنه بعض مريدوه وبهوية الشباب الذين التفوا حوله . ففهم سليم عنحورى الذى استفاض فى دراسة الأديان حتى أففى به ذلك إلى الإلحاد والاعتقاد بخلود العالم - وفى مصر أصبح مركز الدائرة بالنسبة إلى المثقفين الساخطين والمتمردين على الدين الذين كان يلقنهم مبادئ فلسفية مريبة وهدامة . وقد برز من هؤلاء عبداقة النديم الذى قضى سنوات ينادم أعيان الريف ويلقى عليهم النوادر على موائد شراهم وأديب إسحاق الذى هاجم رجال الدين الكاثوليك والموارنة الذين رفضوا الصلاة على جثمانه بعد وفاته فى بيروت واليهودى يعقوب صنوع الذى أبدى حماسة لتوحيد الأديان السماوية الثلاثة بالشكل الذى صوره الأفغانى والقس لويس صابونجى رجل الدين الكاثوليكى العراقى الأصل الذى كان أميل إلى الإسلام كما يشير بروفيسور كدورى إلى أن رفقاء الأفغانى خلال السنوات الأخيرة التى قضها فى استنبول كانوا يضمون بابيين من الفرس عرفوا بمحاولتهم نشر الإلحاد ونشاطهم فى زعزعة سلطة الحكومة الفارسية . كما يشير إلى ألى القنصل البريطانى العام فى مصر سجل حادثة طرد الأفغانى من مصر فى عام ١٨٧٩م : مقتبسا بعض التفاصيل عن حياته بالصورة التى لاشك أنها كانت متواترة فى الدوائر الرسمية - فكتب مايلي : د لاند

طرد من محفل الماسونيين الذى كان يتمتع بعضويته فى القاهرة منذ وقت قصير ، وذلك لما أعلنه من عدم إيمانه بالكائن الأعظم .

ويجمع مؤلفا الكتابين الذين نعرض لهما على أن ما نشر باللغة العربية عن الحوار الفكري الذى جرى بين الأفغانى ورينان على صفحات جريدة « الجورنال دى دبا » الباريسية لا يطابق الأصل الفرنسى وأن كلا من محمد عبده والأفغانى لم يديا أى ميل إلى نشر رد الأفغانى على رينان : وهو الرد الذى لم يترجم نصه إلى اللغة العربية حتى الآن ، بل اقتيست منه بعض الفقرات التى حورت بحيث عرضت باعتبارها دفاعا عن الاسلام . وتقدم بروفيسور كدى نص خطبة رينان وتعليق الأفغانى عليها مترجما إلى اللغة الإنجليزية . أما خطبة رينان المشهورة هذه فقد أُلقيت فى السوربون يوم ٢٩ مارس ١٨٨٣م ، وفى معرضها أشاد المتكلم بالهيلينية باعتبارها مصدر العلم والتقدم فى أوربا وهاجم الاسلام صراحة باعتباره — فى رأيه — أداة للطغیان والاضطهاد وكبت حرية الرأى .

وقد اختار الأفغانى أن يرد علينا على هذه الخطبة وفى رده — كما هو منشور فى هذا الكتاب — أمن على بعض ما ذهب إليه رينان فى أن الأديان جميعا بعيدة عن الناسح وأنها مدعاة لاختلاف البشر .

وبالإضافة إلى هذه القضايا الرئيسية المتعلقة بحياة جمال الدين تشير بروفيسور كدى جوانب أخرى منها أنه أطلق على نفسه اسم الأفغانى إلا فى عام ١٨٦٩ م ، بعد طرده من أفغانستان وأنه أطلق على نفسه قبل ذلك لقب « الاستقبولى » وأنه فى فترة ثالثة من حياته أدهى الانتساب إلى آل البيت وأطلق على نفسه اسم الحسينى . وهى تقطع بأنه كان شيعيا مستدلة على ذلك بتفقهه فى الدين — الأمر الذى كان غريبا فى أيامه على المقلدين من أهل السنة .

إن هذين البعثن اللذين عرضنا لهما يعززان ما يذهبان إليه بمختلف الأسانيد الوثائقية التى استلزمت منهما جهدا كبيرا فى التوصل إليهما وتحليلهما . ولا ينبغي لهذه الإضافات التى أوضحنا فيها جوانب جديدة من حياة جمال

الدين وفكره والتي نقلنا جزءاً منها أن تقلل من شأنه باعتباره أحد أعلام
حركة الكشف ضد الاستعمار في القرن الماضي ، وأحد كبار دعاة حرية
الفكر في الشرق . ولا نرجو أن يثير عرضنا هذا اعتراضاً أو سخطاً
من البعض فالحياة البشرية من التعقيد بحيث لا نتوقع لشخص ما
أن يتوافق تفكيره وسلوكه في كل وقت مع الصورة التي ترسب
في أذهاننا عنه . بل إن الواحد منا لو تتبع أقواله على مسطح زمني شاسع
لرأى العجب العجيب : ما بين الشك واليقين والرضى والسخط وغير ذلك من
الاحاسيس المتصارعة المتناقضة خاصة إذا ما علاصوته ولم يستبطن أفكاره
في مدها وجزرها قبل أن يتخذ القرار الحاسم . فالإنسان لا يولد عظيمًا منذ
اليوم الأول ، وكبار الشخصيات من أمثال جمال الدين من الطول العرض
والإيجابية والاضطراب النفسي وكثرة الصحبة والكلام والحساسية بحيث
تعلو على بعض الهنات التي ركن عليها مؤلفا الكتابين اللذين استعرضناهما
من باب إبراز ما توصلنا إليه وتجسيمه بحيث يركزان الاضواء على جانب
واحد من جوانب حياة جمال الدين وفكره . وهو الجانب الذي مر عليه
مترجموه السابقون مرور الكرام أو تجاهلوه تجاهلاً تاماً أما عن قصد
تبريري أو لقصور المادة التي توصلوا إليها . فالزعماء ليسوا فصيلة خاصة
من بني الإنسان ، ولستهم من قوة البنيان النفسي وحسن الإدراك بحيث
يتميزون على معاصريهم ويتقدمون الصفوف . وما أحوجننا في نهضتنا
الحديثة إلى النظرة النقدية المتساهلة التي تعرض للتاريخ في إطار الطبيعة
النشرية لا في إطار الخوارق والمعجزات . وما أحوجننا أيضاً إلى أطراح
الزجسية القومية التي ورنناها عن طول الظلم والغبان والاستعمار بحيث
لا نتوقع من العالم الخارجي سوى العدوان والتآمر سواء على كياناتنا أو على
ترائنا القومي . ولنفتح صدرنا لكل جديد حتى ولو كان لا يتفق مع ما لوفنا ،
فإذا لم نرض عنه فعلينا أن نثبت العكس بالتوفر على الدراسة الجادة
لا بالصياح العصبى الذي لن يفيدنا في شيء .